

الفصل الثامن النابعة الذبياني

١

قبيلته

النابعة من قبيلة ذُبَيَّان الغطفانية القيسية، إذ تتسبب إلى بَغِيض بن رَبِث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَمِيْلان ، وإلى بَغِيض تتسبب أيضاً قبيلة عَبْس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطنها بنو فزارة وبنو مرة وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رئاسة فزارة في الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمَل . ومن بني مرة بنو غيظ وبنو سَهْم وبنو صِرْمَة وبنو خُصَيْلَة وبنو نَشْبَة وبنو يربوع عشيرة النابعة، وسيدا بنى مرة غير مداقعين هَرَم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبي سُلمي .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلي مع حرب داحس والغبراء التي نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظنّ من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ويرى بنا أن السبب في نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بني عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمَل بن بدر سيد بني فزارة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً في نهاية الشوط نفّره عن غابته ، فسبقت الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمَل ابنه يطلب منه الرهان المضروب - وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنترة ضمضاً أبا حُصَيْن المري والحارث بن بدر ، ومن قُتل فيه أيضاً عوف بن بدر ، ويوم ذى حسي وكان لذبيان على عبس ، ويوم جَعْفَر الهبابة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حاراً ،
يقول في بعضه (١) :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بنِ بَدْرٍ وسيفي من حُدَيْفَةَ قد شفاني
شفيتُ بقتلهم لغليل صَدْرِي ولكني قطعْتُ بهم بَنَانِي
وثارتُ ذبيان لنفسها في معركة الجراجر أو ذات الجراجر . ثم تجمعت ذبيان
وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفشتان في يوم شِعْب
جبله ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أئخت فيهم عبس وعامر القتل
فقتل لقيط بن زُرارة التيمي وأسر أخوه حاجب . ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس
وعامر في يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التي أتت على
الأبطال والزجال ، فأرسلتُ وقد آلت إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقي الوفد سيدي بنى مرة :
الحارث بن عَوْف وهَرَم بن سنان ، فحملا قويمهما على الصلح ، وحملاً دياب
أقتلي ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ،
ويُظن أنه لم يُكتب للنايعة أن يرى انفضاضها ، فقد توفي قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحي هذه الحروب كانت تدير رحي حروب أخرى
مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل في ذلك ما يدل على أن
القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم
ويشهبونها في وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة يهزمون وتمتلىء
أيدي الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النايعة على نحو ما سئرى بعد قليل أن ينزل
بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً في رفاق ووثام ، فهي
تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخلياً ، على نحو ما تصور ذلك
أشعار بشامة بن الغدير والحصين بن الحمام المرى وزبَّان بن سيار الفزاري والنايعة ،
إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ،
فن ذلك قول الحصين بن الحمام عقب معركة بين عشيرته بنى مسهم وبين بنى
صِرْمَة ، وفيها انتصر الأولون (٢) :

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص ٦٥
والهام : الروس .

(١) عين الأخبار ٣/٨٨ والمرزوق على
الحماسة ١/٢٠٣ وسخط اللالكى للبيروني ٣٠٥ .

صَبْرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ فِينَا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمِعْصَمَا
يُقَلِّقْنَ هَامًا مِنْ رِجَالٍ أَعْزَّةٍ عَلَيْنَا وَهَمْ كَانُوا أَعْقًا وَأَظْلَمَا

ونجد يزيد بن سنان أخى هرم بن سنان يطلق زوجته ، وكانت ابنة النابغة ،
ويثير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصيلة ونُشْبَة ، عاقدًا بينهما حلفاً سمى حلف
المحاش ، وما يزال يربوع حتى يجلبها عن ديارها إلى ديار بنى عُدْرَة ، وفي ذلك
يقول النابغة :

جَمْعٌ مَحَاشِكُ يَا يَزِيدُ فَإِنِّي أَعْدَدْتُ يَرْبُوعًا لَكُمْ وَتَيْمًا
حَدَيْتُ عَلَى بَطُونٍ ضِنَّةً كُلِّهَا إِنَّ ظَالِمًا فِيهِمْ وَإِنْ مَظْلُومًا^(١)

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائماً ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل
ويعتزل بعضها بعضاً ، وقد ترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُدْرَة وغير عُدْرَة .
وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد في الجاهلية العزى وتتخذ لها كعبة
تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرايين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى
الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيها حتى دخلت في الإسلام
الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضباب بن جناب^(٢) بن يربوع ، وأمه عاتكة بنت
أنيس من بنى أشجع الذيبانيين ، فهو ذيباني أباً وأماً ، وكان يكنى بأبي أمامة
وأبي ثمامة^(٣) ، وهما ابتاه ، كما كان يلقب بالنابغة ، وبهذا اللقب اشتهر . واختلفت
الرواة في سبب تلقيبه به ، فقليل لقوله في بعض شعره : (فقد نبغت لنا منهم شئون)
وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرت سنه ومات قبل أن ينهتّر ويذهب عقله^(٤) .

(٣) انظر الأغاني ٣/١١ وترجمته في
الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .
(٤) الأغاني ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء
١٠٨/١ وشرح المعلقات العشر للبريزي .

(١) ضنة : عشيرة من عُدْرَة .
(٢) هكذا في ترجمته بالأغاني (طبعة دار
الكتب) ٣/١١ وفي شرح البريزي للمعلقات
العشر جابر بن يربوع بدلان جناب بن يربوع .

ونظن ظناً أنه سمي بذلك لنبوغه في شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدي والنابغة الشيباني والنابغة التغلبي ، ويميز هو منهم باسم النابغة الذبياني .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشرف ذبيان وبيوتاهم ، وقد يكون في مصاهرة يزيد أخي هرم ابن سنان له وهو من أشرف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن في شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثاني من حياته ، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة^(١) ولزومه له يمدحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضاوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان في هذا الولاء ، فطبيعي أن يقصد شاعرها النابغة النعمان بن المنذر وأن يضحى عليه مدائحه . وسرّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه ونادمه ، وأجزل له في العطايا والصلوات ، حتى أصبح شاعره القدّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حجر التميمي والمثقب العبدى ولبيد العامري ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك في معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائة الميكة زينها سَعْدَانُ تُوَضِّحُ فِي أُوْبَارِهَا اللَّبْدِ^(٢)
والأدَمَ قَدْ خِيَسَتْ فُتْلًا مِرَاقِقُهَا مَشْدُودَةٌ بِرِحَالِ الْحِيرَةِ الْجَدِيدِ^(٣)
وَالرَّاكِضَاتِ ذِيوَلِ الرِّيْطِ فَانْقَهَا بَرْدُ الْهَوَاجِرِ كَالغَزْلَانِ بِالْجَرْدِ^(٤)
وَالخَيْلِ تَمَزَعُ غَرَبًا فِي أَعْنَتِهَا كَالطَّيْرِ تَنْجُو مِنَ الشُّؤْيُوبِ ذِي الْبَرْدِ^(٥)

(٢) المعكاه : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضيح : موضع . السعدان : مراغ . لبد الشعر : ما تلبده منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيمت : ذلّت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزع غرباً : تسح سحاً شديداً . الشؤيوب : السحاب أو دفعات مطره .

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدلها قطام وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهي ليست

على كل حال في رواية الأصمعي للديوان ،

وروى الشتمري عن أبي عبيدة أنه مدح بها

عمرو بن الحارث النسائي .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذلة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه تَوّاً إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادي أقر الخصب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذييان وأسد ، فنكلاهما تنكبلاً فظيماً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نساءهما . فألم النابغة ألماً شديداً صورّه في قوله :

لقد نبيتُ بنى ذبيانَ عن أقرٍ وعن تربيعهم في كل أصفار^(١)
وقلتُ يا قوم إن اللئيمَ منقبضُ على برائنه لوئبة الضاري^(٢)
لا أعرفن ررباً حوراً مدامعها كأن أبكارها نجاج دوار^(٣)
ينظرن شزراً إلى من جاء عن عريض بأوجه منكرات الرق أحرار^(٤)
يذرين دمعاً على الأشفار منحدراً يا ملن رحلة حصن وابن سيار^(٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أمرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفن يمينا وشمالا ، لعل بطلى قومهما حصن بن عيبنة وزبان بن سيار يقلمان بالجيش ، فيخلصانهن من ذل الأمر والعار ، وفي بعض الروايات أنه كان بينهما إحدى بناته . وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببني أسد ، فقال في قصيدة أخرى مصوراً ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غير طريد غير مُفْلِتٍ وموثق في حبال القد مسلوب^(٦)
أو حرة كمهاة الرمل قد كُيِلتْ فوق المعاصم منها والعراقيب^(٧)

- (١) أقر : واد . تربيعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .
(٢) البرائن : الأظفار . الضاري : متعود الاقتراس .
(٣) الررب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النجاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يظفن به فى الجاهلية .
(٤) النظر الشدر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .
(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هذب العين .
(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .
(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

تدعو قَعِينًا وقد عَضَّ الحديدُ بها عَضَّ الثَّقَافِ على صُمِّ الأنايبِ (١)

ولم يجد النابغة بدءاً من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتى يكفوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة ، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فغفوا عن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما ، وظل عندهما يبالغان في إكرامه ويبالغ في مديحهما ، محاولاً بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم . وقد مرتنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً في بني ضنة العذريين وعشاثرها من بني حُنَّ ، فتوسع لهم في ديارها ومراعيا ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بني حُنَّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفي ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بني حُنَّ ببرقةٍ صادرٍ (٢)
تجنبْ بني حُنَّ فإن لقاءهم كريةٌ وإن لم تلق إلا بصابِرٍ (٣)
عظامُ اللّهي أولادُ عُدرةٍ إنهم لهما ميمٌ يستلّهونها بالحناجرِ (٤)
وهم منعموا وادى القرى من عدوهم بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ (٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً ، إذ كان يتخذة داعية له في قومه ، وكان يرى في نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له ، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلج في مديح خصومه . وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم .

(٤) اللّهي هنا : المال . لهاميم : جمع لعموم وهو الضخم العظيم . يستلّهونها : يتبعونها ، يصفهم بعظم الخلق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .

(٥) مبير : مهلك .

(١) قعين : عشيرة من أسد . الثقف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنايب : كعوب الرماح .

(٢) برقة صادر : موضع .

(٣) صابر : شجاع في الحرب .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيماً ، وقد أخذ يدفع عن نفسه في اعتذاراته المشهورة التي قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغمّر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به في غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل القبيلة . وواضح أننا لم نأخذ بالروايات (١) التي رواها القدماء في سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاء به هجاء مقدماً ، وفي بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير القرنند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذته ، واضطفن صاحبه على النابغة فوشى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفي رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضائها ، فغار منه المنخل اليشكري وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسرى فيما بعد أن قصيدته في المتجردة موضوعة .

وفي الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جتني جنابة عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا ووفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهيم النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصياً ، وإنما كان ذنباً سياسياً . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات (٢) .

ونعتقد أن سفارته لقومه في بلاطى المناذرة والغساسنة هي التي أقلت الإشارات في شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك في وقائعها . ومع ذلك نراه في بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها للديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أبلغ بنى ذبيان أن لا أخاً لهم بعبس إذا حلوا الدماخ فأظلماً (٣)

(٣) الدماخ : جبال . أعظم : موضع .
يشير بهما إلى منازل بني عامر .

(١) الأغاني ١٢/١١ وما بعدها وانظر
ترجمته في الشعر والشعراء .

(٢) أغاني ٢٩/١١ .

هم يُردون الموتَ عند لقائه إذا كان ورْد الموت لأبْد أكرمًا
 وكأنه يجرّض قومه أن يعودوا إلى السلم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم ،
 ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغناء في الحروب . وليس في شعره أى إشارة لوعيد
 أو تهديد لعبس ، وكأنه كان يبنى على القربى والرحم بينه وبينها ، فهو لا يتوعدّها غارة
 ولا يندد بالوقائع التي انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض
 لعامر حليفها يهددها ويهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرعة بن عمرو وعامر بن الطفيل
 بغارات شعواء لقومهما تُسبّي فيها الأطفال والنساء . وسحاول زرعة وبعض بنى عامر
 أن يدفعوا ذبيان لنتقض ما بينها وبين أسد من حلف وعقد حتى تُحقّقن الدماء ،
 وعلم النابغة بذلك وأن عبيّنة بن حصن وبعض الذبيانيين يفكرون في الأمر ، فتولى
 غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعبيّنة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم وبين أسد
 من العهود والعقود ، وفي ذلك يقول قصيدته :

قالت بنو عامرٍ خالوا بنى أسدٍ يا بُؤسٌ للجهل ضراراً لأقوامٍ^(١)
 يَأبى البلاء فلا نبغى بهم بدلاً ولا نريد خِلاءً بعد إحكامٍ^(٢)

وتوجه إلى عبيّنة يعنفه تعنيفاً شديداً في قصيدة أخرى ، يقول في تضاعيفها :

إذا حاولتَ في أسدٍ فجوراً فإني لستُ منك ولستَ منى
 وهو موقف يدل على نبهه وحرصه على الوفاء ، ويدخل في ذلك مدحه لبنى أسد
 وإشادته بشجاعتهم وبلاّهم في الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات
 قومه ، فهو لا يتفتّى تفتّى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يترأى سيداً وقوراً
 ذا خلق وشيم كريمة ، فهو لا يتدنّى في سفاهة ولا يتبدّل في مجون . وفي أشعاره بعض
 إشارات مسيحية ، وقد جاء ذلك من إقامته الطويلة في الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه
 استمع إلى بعض ما يقوله الأخبار والرهبان ، ولكن لا شك في أنه كان على دين

(١) خالوا : من المخالاة وهي نقض العهد . الخلاء : نقض العهد كالمخالاة .

(٢) البلاء : يقصد بلاءهم معهم في الحرب .

آبائه يتعبد العزى وغيرها من آلهتهم الوثنية، ويختلف معهم إلى الحج بمكة ،
وفي معلقته :

فلا لعمرُ الذى مسَّحتُ كعْبتهُ وما هُرِّيقَ على الأَنْصابِ من جَسَدِ
فهو يقُدسُ الدماءِ التى كانت تُصَبُّ على الأَنْصابِ .

وكان فيه حكمة ، وهى مبثوثة فى شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرم
الخمر والأزلام فى الجاهلية^(١) . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال
شهرة واسعة فى عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً فى داخل
الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه فى المواسم والأسواق أشعارهم .
قال صاحب الأغاني : « كان يُضْرَبُ للنابغة قُبَّةً من أدمٍ بسوق عكاظ ، فأتته
الشعراء ، فعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشدته الأعشى أبو بصير ،
ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صَخْرًا لتَأْتُمُّ الهداةُ بهِ كأنه عَلمٌ فى رأسه نارٌ^(٢)

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ،
فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخى
أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مُدْرَكى وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٍ فى جِبَالٍ متينةٍ تَمُدُّ بها أيدٍ لىك نوازِعُ^(٣)

فخَسَّ حسان لقوله^(٤) . وفى رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له
أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرَيْلمَعْنُ بالضحى وأسيافنا يَقَطْرُنَ من نَجْدَةٍ دما

(١) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل . ويقصد قصائده التى يستعطفه بها .

(٤) أغاني ٦/١١ .

(٣) خطاطيف : جمع خفاف وهو حديدة

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرقٍ فأكرمُ بنا خالاً وأكرمُ بنا ابنمّا^(١)

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقلت أجفانك وأسيفك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك^(٢) . وأكبر الظن أن هذه الزيادة في تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال في جمع التكسير يدلان على القلة . وفي الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبس بكلمة ولدنا ، فتهي مباحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المباحكة والمغالطة . والمهم في الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعش طويلاً ، فليس في أشعاره أى شىء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف في حقن الدماء بما تحملا من دياب ، ومن ثمَّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤^(٣) .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له في المجلة الآسيوية (١٨٦٨ — ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنبرة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا في حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج في نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشتمرى وجددهما في

(٢) أغاني (طبعة دار الكتب) ٣٤٠ / ٩

والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة القسائى ، ومعروف أن القسائنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها في فينا وهي بشرح البطليوسي . وقد نُشر في سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان في المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة في مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان الورد في مجموعة الدواوين الستة التي عُنِيَ بها الشنتمرى ، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمرى ، فقد أُلحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده مسروباً في كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان في القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمرى وإنما بشرح البطليوسي . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان» وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر في بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهي دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائي وعلقمة الفحل . وقد نشره لويس شيخو في مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة الورد . ونشره مصطفى السقا في مجموعته «مختار الشعر الجاهلي» وهذه المجموعة كما مر بنا هي نفسها مجموعة الدواوين الستة التي عُنِيَ بها الشنتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التي بثها الشنتمرى فيه . وفي دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفي مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك في مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزي . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعمد في دراستنا للشاعر على شرح الشنتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعي أوثق رواة الشعر الجاهلي ، وهي تنهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمرى بعقبها : «كل جميع ما رواه الأصمعي من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيرة مما رواه غير الأصمعي إن شاء الله تعالى» وهي سبع قصائد رواها عن الطوسي ، وهو إنما يروي عن ابن الأعرابي وأبي عمرو الشيباني ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعي أستاذ البصرة والبصريين . وكان الأصمعي كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها في روايته ، ومن ثمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها في دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعي ،
ونتخذُه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضي في رواية الأصمعي حتى نجدُها في حاجة إلى مناقشة ،
فإن الأصمعي احتفظ فيها بقصيدته في المتجردة : (أمن آل مية رائج أو مقتد)
مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمري . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن
لا نقرؤها حتى نجدُها تتضمن غزلاً مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة
الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً في شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ،
ولكنه يأتي شذوذاً في هذه القصيدة ، ليدلّل - كما مر في غير هذا الموضع - على
خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب في غضب النعمان بن المنذر على
النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزل الماخن الذي يندى له الجبين ، وكأنما
ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج
النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين في فهم العصر الجاهلي وما كان فيه من
منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا في درس شعر النابغة
لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك
أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزمهم هزيمة
منكرة . وبذلك فقد النعمان داعيته في ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال
النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفى خصماً ذبيان من
الغساسنة ، وهما عمرو وأخوه النعمان ، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن
المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليب القبائل على قبيلته .
فالموقف كله كان موقفاً سياسياً ، ولم يكن موقفاً شخصياً ، ولذلك كنا نرد قصيدة
المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين
علم بمرضه ، ومن ثمّ كنا نشك في قصيدته الرائية التي يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعُشُهُ على فتيةٍ قد جاوز الحى سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلده يردُّ لنا مَلَكًا وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً ، ليصوروا لنا النعمان عليلاً ، ونفس أسلوبها وما في
نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية ، ومن ثمّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التي

تتصل بمرض النعمان والتي يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلاً في مطلعها :
 ألم أقدم عليك لتخبرني أمحمولاً على النعش الهمام
 وأيضاً فإننا نشك في قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضللِّ ما أتاني
 لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلبي حين أصاب
 إبلًا للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بني عامر ، وهي قيسية مضرية ، ومع
 ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمينياً إذ يقول في نهايتها : (ولكن لا أمانة لليمان)
 وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمينى ، وكأنا القافية أعوزت في البيت متحله ،
 بل متحل القصيدة فدعاه يمينياً ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التي جاءت في
 رواية الأصمعي ويملأنا الشك فيها قصيدته :

بانئتُ سعاداً وأمسى جَبَلُها انجذَماً واحتلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجْزاعَ من إضْماً
 لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح في قوله مخاطباً صاحبه :
 حَيَّاكَ رَبِّي فَإِنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا لَهْوُ النِّسَاءِ وَإِن الدِّينَ قَدْ عَزَمَّا^(١)
 مُشْمِرِينَ عَلَى خُوصٍ مَزْنَمَةٍ نَرْجُو الإِلهَ وَنَرْجُو البِرَّ وَالطَّعْمَا^(٢)
 وإذن فنحن ننكر خمس قصائد في رواية الأصمعي وثبتى على سبع عشرة ، ومع
 إبقائنا عليها لا نخليها من بعض أبيات أدخلت في روايتها ، فن ذلك قصيدته العينية
 التي يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تَمْضَى على هذا النحو :

لعمري وما عمري علىَّ بهينٍ لقد نطقتُ بَطْلًا علىَّ الأَقَارُعُ^(٣)
 أَقَارُعُ عَوْفٍ لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا وَجَوَّةَ قُرُودٍ تَبْتَغِي مِنْ تَجَادَعِ^(٤)
 أَنَاكَ أَمْرًا مُسْتَبْطِنًا لِي بِغَضَّةٍ لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلَ ذَلِكَ شَافِعِ

ورجالها . الطم هنا : الرزق .
 (٣) الأَقَارُعُ : بنو قريظ بن عوف .
 (٤) تجادع : تشام . ولفظ وجوه منصوب
 على الهمزة .

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا
 عليه . فهو من باب القلب في التعمير .
 (٢) مشمرين : جادين . الخوص :
 الإبل غائرة العيون . مزمنة : مشدودة بأزيتها

أتاك بقولٍ هذَّهَلِ النَّسْجِ كاذِبٍ ولم يأتِ بالحق الذي هو ناصعٌ
أتاك بقولٍ لم أكن لأقوله ولو كُيِّلتُ في ساعديَّ الجوامع^(١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب في هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفَّاف نظما هجاء في النعمان على لسانه ، فلما علم به فَرَّ على وجهه . ونحن ننفي هذه الأبيات عن القصيدة وننفي على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التي جاءت في معاقته والتي يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشَبِّهه ولا أحاشي من الأقوام من أحدٍ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم في البرية فاحدِّثها عن الفند^(٢)
وخيس الجِنَّ إني قد أذنتُ لهم يَبْنُونَ تَدْمُرُ بالصُّفَّاحِ والعمدِ^(٣)
فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك وادُّلُّه على الرُّشدِ
ومن عصاك فعاقبه معاقبةً تنهى الظلومَ ولا تقعد على ضمَدِ^(٤)
إلا لمثلك أو من أنت سابقه سبقَ الجواد إذا استولى على الأمدِ^(٥)

وواضح أنه يسترسل في الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنيّاً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات أقحمت على المعلقة إقحاماً^(٦). وقد نسبت إلى النابغة أبيات في غير رواية الأصمعي يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلَقاً ثيابي على خَوْفٍ تُظَنُّ بِِي الظنونُ
فألفيتُ الأمانةَ لم تَحْنُها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

(٤) الضمد : النيط وثدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التي تجري إليها الخيل .
والبيت معلق بما قبله أي لا تقعد على غيظ
إلا لمن هو مثلك في الناس أو قريب منك .
(٦) في الأدب الجاهلي ص ٣٣٧ وما بعدها .

(١) كُيِّلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احددها : امنعها . الفند : الخطأ في
القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزبياء في
بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد :
أساطين الرخام .

ونفى الجليظ^(١) وابن سلام^(٢) أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسّاً ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها في المعلقة الأبيات التالية التي تصوّر فطنة الإمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر في مضيق من الهواء يجعله يشتد في طيرانه ويسرع إسرعاً :

أحْكُمُ كحِكْمِ فتاة الحىّ إذ نظرتُ	إلى حَمَامٍ شِرَاعٍ وَاوردَ الشَّمْدِ ^(٣)
يحفُّه جانباً نيقٍ وتُتبعه	مثلَ الزجاجة لم تُكحلّ من الرمدِ ^(٤)
قالتُ ألا ليّما هذا الحمامُ لنا	إلى حمامتنا ونصّفه فقدِ ^(٥)
فحسبوه فألفوه كما حسبتُ	تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزدِ
فكملتُ مائةً فيها حمامتها	وأسرعتُ حِسبةً في ذلك العدد

وهي أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصصح بقية المعلقة ، كما نصصح قصائده ومقطوعاته الأخرى التي جاءت في رواية الأصمعي باستثناء ما أتهمناه .

٤

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى ، فهؤلاء الأربعة في رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء في الجاهلية^(٦) . وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقاً هم المجتوبون السابقون في اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم في فنونه المختلفة .

في مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء . وشبه عين زرقاء الإمامة بالزجاجة في صفتها . لم تكحل من الرمد : لم يصيبها رمد فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ - ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء الإمامة . شرع : مجتمة . البند : الماء القليل .
(٤) يحفُّه : يحيط به . نيق : جيل . وجعل الحمام يمر في جانبي نيق لأنه إذا مر

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب في ذوقه من أوس بن حَجْر وزهير ومدرستهما التي اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفقد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ الموثق والديباجة الجزلة . وقد أتيج له أن يعيش في بيتين متحضرين هما الحيرة وبلاط الغساسنة . فرق ذوقه وسهل منطقته ولفظه ، وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلاً عند إجادته لفتى المديح والاعتذار ، غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين اغضَّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان في غنى عن هذا القول . « قيل لأبي عمرو بن العلاء : أفن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا . لعمر الله ما لمخافته فعل . إن كان لآمنا من أن يوجه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة . ولكنه رغب في عطاياه وعصايفه (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك^(١) » .

ويبعد في رأينا أن يكون قد وفد على أبي النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعي يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذ نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد اغضَّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح . لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا . فقد كان سفيرها في بلاطهما . وحقاً إنه يبالغ في مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهي إلى ذلة نفس ، بل هي المبالغة التي تأتي من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغساني . وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان في الصحراء وصيده . وأيضاً ففي شعره قصائد وهقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

(١) أغاني ٢٩/١١ وما بعدها .

وأحلافها من بني أسد وأعدائها. من بني عامر ، وبعبارة أخرى في شعره فخر وهجاء ، وفي تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمدححه للغساسنة حتى نؤمن حقاً بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع في معانيه وكيف يستم صوره . وخير مدائحهم فيهم قصيدته البائية ، وهو يستلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من المهموم ، يقول :

كِلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ ناصبٍ وِلِيلِ أَقاسِيه بَطِيءِ الكواكِبِ^(١)
تَطاولَ حَتَّى قَلتَ لَيسَ بِمَنقُضٍ وِلَيسَ الَّذي يَرعَى النَجمَ بِآيبِ^(٢)
وَصَدْرٍ أَراحَ اللَّيلُ عازِبَ هَمٍّ تَضاعَفَ فيهِ الحَزنُ مِن كلِّ جانِبِ^(٣)

فهو محزون في أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها هومها وأشجانها لما وقع في قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمه فيه تصويراً بديعاً ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصباح الذي يرعى النجوم بأضوائه ويحصد ما حصداً لن يؤوب ، واللليل يثقل على صدره بما يرد عليه من موجات الهم والحزن . وهي براعة استهلال رائعة تدل دلالة بيّنة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيماً بالصور . وقد خرج من ذلك تَوْأً إلى ملح عمرو بن الحارث الغساني وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلاً عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال في هذا التصوير قائلاً :

إِذا ما عَزَّوا بِالجِيشِ حَلَقَ فوَقِهِم عِصائِبُ طَيرٍ تَهتَدِي بِعِصائِبِ^(٤)
يُصاحِبُهُم حَتَّى يُعِرِّنَ مُغارَهُم مِنَ الضَّارِياتِ بِالدِماءِ الدِوارِبِ^(٥)

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعدوات . الدوارب :

المدربة .

(١) كليلي : دعيني . ناصب : متعب .

بطيء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور

ولا تمضي .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم

الصباح .

- تراهن خَلَفَ القوم خُزراً عيونها
جوانحَ قد أيقنَ أن قبيله
لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنها
على عارفاتٍ للطعان عوابيس
إذا استنزَلوا عنهن للطَّعن أَرَقَلُوا
فهم يتساقون المنية بينهم
يَطِيرُ فُضاضاً بينها كلُّ قَوْنَسِ
ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم
تُورَّثَنَ من أزمانٍ يومِ حلِمةٍ
تَقْدُ السُّلوقُ المضاعفَ نَسْجَهُ
بضرب يُزيل الهام عن سَكَناته

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ،
تنتظر زاداها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

رَأَى عَيْنٍ ثِقَّةً أَنْ سَتَمَارُ (١٢)

وترى الطير على آثارنا

فيها الحارث بن جبلة النسائي على المنذر بن
ماء السماء .

(١٠) السلوق : الدرع المنسوبة إلى سلوق
من أرض اليمن . تقد : تشق . الصفاح : الحجارة
ويريد خوذ الجنود . الجباحب : ذباب له
شعاع بالليل .

(١١) الهام : جمع هامة وهي الرأس .
سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ :
دفع الناقة يولها . الخاض : الحوامل .

(١٢) أنظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار :
تعطى الميرة من لحوم القتل .

(١) خزر الميون : جمع أخزر وهو الذي
ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .

(٢) جوانح : مائلات الوقوع .

(٣) الخطى : الرياح . الكواثب : القربوس .

(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح .

دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .

(٦) بيض : سيوف .

(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى

الرأس . فراش الحواجب : عظامها .

(٨) فلوق : ثلوم . قراع : مضاربة .

(٩) يوم حلِمة : معركة مشهورة انتصر

غير أن النابغة فصلّ الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهي تشبه في ألوانها ثياب المراب السوداء التي يلبسها الشيوخ ، وهي تسير خلفهم موقنة بأنها لا بد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهي لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتها فيهم لا يخفونها ولا يملونها . وقد أعجب القدماء طويلاً بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته^(١) . ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة في الوصف ، وهي دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كثوس المنية ، كناية عن جرأتهم في الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يشخون في أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها دم وباطنها ملح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس في حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسوفهم مفلة من طول قراعها ومضاربتها للكثائب . ومثل هذا التعبير الذي سبق إليه يدل على أنه كان يدقق في معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم في يوم حليمة الذي هُزم فيه المناذرة شرهزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء في ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفلة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى وكأنه أشعة الجاحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ الخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة في ميادين الحروب انتقل بصورهم في سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمالهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم
محلَّتْهم ذاتُ الإله ، ودينُهم
من الجود ، والأحلامُ غيرُ عَوَازِبِ^(٢)
قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقبِ^(٣)

عازب وهو الغائب .

(٣) محلّتهم: منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

(١) انظر الصناعتين المسكوى (طبعة الحلبي) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجاني (طبعة الحلبي) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : المقول . عوازب : جمع

رَقَاقُ النَّعْمَالِ طَيْبٌ حُجْرَاتُهُمْ يُحْيَوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ (١)
 تَحْيِيَهُمْ بَيْضُ الْوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ (٢)
 يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمُهَا بِخَالِصَةِ الْأَرْدَانِ خُضْرِ الْمَنَاكِبِ (٣)
 وَلَا يَحْسِبُونَ الْخَيْرَ لَا شَرًّا بَعْدَهُ وَلَا يَحْسِبُونَ الشَّرَّ ضَرْبَةً لَا زَبَّ (٤)
 حَبَوْتُ بِهَا غَسَّانَ إِذْ كُنْتُ لَاحِقًا بِقَوْمِي وَإِذْ أَعْيَتُ عَلَى مَذَاهِبِي (٥)

وهو في أول الأبيات يصفهم بالجلود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ في وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا في غير هذا الموضوع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحول يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاحة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أصفاء ، يحيون بالأزهار في عيد السباسب أو يوم الشعانين ، وهو من أعياد النصارى ، وهم ممنعون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجهم واستتبع ذلك شراً وبلاء فإن في الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رحبت بسبب من أمير منهم عند ممدوحه ، وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع . وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها في معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور الموثقة الدقيقة . وقد نفذ في أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو في ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير في مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعاني ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه في الحيرة وفي بلاط الغساسنة ،

- (١) الحجرات : معاقد الثياب . طيب
 حيزاتهم : كناية عن عفتهم .
 (٢) الولائد : الجوارى والإماء . الإضريح :
 الحرير الأحمر . المشاجب : جمع شجب
 وهو أعواد تعلق عليها الثياب .
 (٣) الأردن : الأكام . وخلصها :
 فصوح بياضها .
 (٤) لا زب : لازم .
 (٥) بها : يريد تصديده . أعيت مذاهب
 عليه : ضاقت ومدت .

فكان طبيعياً أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتي بمثل هذه المعاني التي تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق في المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق في الاعتذار ، وكان ذوقه الحضري هو الذي أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة في اللهجة وإلحاحاً في التلطف ومحاولة أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه . وقد استعان بموهبته في اختراع الصور والمعاني والتدقيق فيها ، مدبجاً في ذلك قصائد طوالاً تُعَدُّ من أروع ما خلقه العصر الجاهلي لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه في ذلك ذوقه الحضري الذي خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجاحمة ، فإذا ذنبه يكبر في نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فابنى يقدم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفيظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍ لا صغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضري الذي اكتسبه النابغة والذي جعله يختلف عن معاصريه ويقرب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون في التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجع إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التي قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتتناً في تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يملحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والحيل ومن الجوارى المنعمات ، ثم مضى يستعطفه قائلاً :

فلا لعمرُ الذي مسَّحتُ كَعْبَتَهُ وما هُرِّيقَ على الأنصابِ من حَسَدِ^(١)
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرِ تمسحها رُكْبَانُ مَكَّةَ بين الغَيْلِ والسَّعْدِ^(٢)

العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها
الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهبجها
بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومي.

(١) مسحت : لمست أتمس البركة . هريق :
سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة
التي كانوا يذبحون عليها قربانهم للالهة .
(٢) المؤمن : الذي آمنها من الخوف .

ما قلتُ من سيِّءٍ مما أتيتَ بهِ
 إلا مقالةَ أقوامٍ شقيتُ بها
 إذنٌ فعاقبني ربي معاقبةً
 أنبتتُ أن أبا قابوسٍ أو عدني
 مهلاً فداءً لك الأقسامُ كلُّهمُ
 لا تقدفني برؤسٍ لا كفاءٍ له
 وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه بريء مما يتهم به من غدر ، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلَّ يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ، فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله وولده ، ويقول له لا ترمني بما لا أطيق منك ، وأنت الذي لا يستطيع الأعداء مهما تآزرُوا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه فيقول :

فما الفرات إذا هبَّ الرياحُ لهُ
 يمسُّه كلُّ وادٍ مُترعٍ لَجِبِ
 يَظَلُّ من خَوْفه الملاحُ مُعتصِماً
 يوماً بأجودٍ منه سيبَ نافلةٍ
 ترْمِي أوادِيه العَبْرينَ بالزَّيْدِ (٦)
 فيه رُكَّامٌ من اليَنْبُوتِ والخَصَدِ (٧)
 بالخَيْرِزَانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجْدِ (٨)
 ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دونَ عَدِ (٩)

(٧) مترع: مملوء . لجب : لخب : ذو صوت شديد .
 الينبوت: شجر . الخصة : المحطم من الأشجار .
 (٨) الخيرزانة : سكان السفينة . الأين :
 التعب . النجد : الكرب .
 (٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة .
 يريد أن عطاؤه وفر .

(١) الفرع : الضرب .
 (٢) الفتد : الكذب .
 (٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
 (٤) أُمُر : أُنمى وأجمع .
 (٥) الكفاء : النظير والمثل . تأنف :
 تجمع . الرقد : الجماعات من الناس .
 (٦) أواديه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .

هذا الثناء فإن تسمع به حسناً فلم أعرض - أبيت اللعن - بالصغد^(١)
ها إن ذى عذرة إلا تكن نفعت فإن صاحبها مشارك النكد^(٢)

وقد بدأ فشبّه بالفرات في كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات في ارتفاع فيضانه ،
وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية في دقة التصوير ،
فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملاً ما يقتلعه من
الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصماً في مركبه
بسكاتها يخشى الغرق . وقد نبي أن يكون الفرات في فيضانه أكرم من النعمان وأكثر
سيباً . وداًئماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه
يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغي به نواله ، وإنما يبغي
رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به في مهاوى النكد والهلم . ومن بديع اعتذاراته
قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وعيدُ أبي قابوس في غير كُنْهه أتاني ودوني راكس فالضواجع^(٣)
فبت كائي ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع^(٤)
يسهد من ليل التمام سليليها لحنى السماء في يديه قعاقع^(٥)
تناذرها الراقون من سوء سمها تُطلّقه طوراً ، وطوراً تُراجع^(٦)
أتاني - أبيت اللعن - أنك لمتنى وتلك التي تستك منها المسامع^(٧)

المنقطة فقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .
(٥) يسهد : يمنح من النوم . ليل التمام :
أطول ليالي الشتاء . السليم : المملوغ . قعاقع :
أصوات . كانوا يعملون الحبل في يد المملوغ
اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .
(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراق . بل
مرة تجيب و مرة لا تجيب . تناذرها الراقون
خوف بعضهم بعضاً منها .
(٧) تستك : تصيق .

(١) الصغد : العطاء . أبيت اللعن : تحية
كانوا يحيون بها ملوكهم .
(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد :
حليف نكد وهم .
(٣) في غير كنهه : كنهه : حقيقته ،
يريد على غير ذنب منه . راكس : واد في
منازل بني أسد . الضواجع : منحى الوادى .
(٤) ساورتنى : لدغتنى . ضئيلة : أغمى
دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهي

وذلك من تلقاء مثلك رائعٌ
 وهل يَأْتَمَنُ ذُو أُمَّةٍ وهو طائعٌ (١)
 يَزُرْنَ إِلَّا ، سَبْرُهُنَّ التَّدَاغُ (٢)
 لهن رذايا بالطريق ودائعٌ (٣)
 فهنَّ كأطرافِ الحَنِيِّ خَوَاضِعُ (٤)
 كَذَى العُرِّ يُكْوَى غيره وهو رائعٌ (٥)
 ولا حَلْفِي على السبّاعة نافع
 وأنت بأمرٍ لا محالة واقع
 وإن خِلْتُ أن المُنْتَأَى عنك واسعٌ (٦)
 تمدُّ بها أَيْدِيكَ إليك نوازِعٌ (٧)
 وتتركُ عَبْدًا ظالمًا وهو ضالِعٌ (٨)
 وسَيْفٌ أُعْبِرْتَهُ المنبِةُ قاطِعٌ (٩)
 فلا التَّكْرُمُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعٌ (١٠)

مقالة أن قد قلت سوف أناله
 حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً
 بمصطحياتٍ من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ
 سَمَاماً تُبَارِي الرِّيحَ خُوصاً عيونها
 عليهنَّ شُعْتٌ عامدون لِحَجَّهِمْ
 لكَلَّفْتَنِي ذنب امرئٍ وتركتَهُ
 فإن كنتَ لاذو الضُّغْنِ عني مكذَّبٌ
 ولا أنا مأمونٌ بشيءٍ أقولُهُ
 فإنك كالليل الذي هو مدركي
 خطاطيفُ حُجْنٍ في حبالٍ متينةٍ
 أتوعدُ عَبْدًا لم يَحْنُكَ أمانةٌ
 وأنتَ ربيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيِّبُهُ
 أبا الله إلا عَدْلُهُ ووفاءهُ

(١) طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع :
 المتظامنة رومها من الأرض .
 (٥) المر : الحرب . وكانوا يداون الإبل
 منه بكيا .
 (٦) المنتأى : المكان الناقى البعيد .
 (٧) مرشرحه .
 (٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى
 ظالع وهو الجائر المذنب .
 (٩) الربيع هنا : النيث . السبب :
 المطاء .
 (١٠) التكر : المذكر . العرف : المعروف

(١) أمة هنا : دين .
 (٢) بمصطحيات : أقسم بالإبل التي
 تصطبغ في المسير إلى الحج . لصاص وثبرة :
 موضعان في ديار تميم . إلال : جبل بعرفة .
 التدافع : العجلة .
 (٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به
 الإبل في سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة
 السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهي
 الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات
 في الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .
 (٤) شعث : جمع أشعث وهو المفبر من

وَتُسْقَى إِذَا مَا شِئْتَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ بزوراء في حافاتها المسك كانع^(١)
هو في أول هذه الأبيات يقول له: إن وعيدك أتانى وأنا آمن في قوى وبنى
وبينك منازل بنى أسد ومن وراءهم ، فألت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما
لدغنى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهى أفعى
من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضته لم يطف به النوم من شدة
الألم ، وعلق عليه أهله الخلى والخلائيل حتى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الخبيثة
التي قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا
حماها . ويصور النابعة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويخلف له بأيمانه
الوثنية ، ويختار هنا الخلف بالإبل التي كانوا يندرونها لأهلهم ، ويقف ليعطينا
صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتى لكأنها
تبارى الريح ، وقد أجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط فى
الطريق لإعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون
يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسي الضامرة . وهذا اليمين
العظيم يقسم به متصلاً مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغسانة
يمدحهم ويهجوهم ، وكان حرياً به أن يتزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى
وإلا فثأله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الحرب ، والأجرب
راتع بجانبه لا يصيبه كى ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت
لا تكذب من يضطغن على ولا تصدق يمينى ولا حلنى فما أحرانى بالرهبة منك
والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ،
لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده
التي يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة نُبَّت فى جبال متينة ،
وأيدى النابعة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أماته وأنه
لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقربهم ويرعاهم ، ويحتم اعتذاره إليه
بمدحهم والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

(١) مصدر : من التصريد وهو الشرب دون
النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

(١) مصدر : من التصريد وهو الشرب دون
الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان

براه الله لرعيته عادلا وقيماً ، لا يلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب في كأس مفضضة مُزِج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى - أبيت اللعن - أنك لُمَنتى
فبتُّ كأن العائداتِ فرَشَنتى
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبَةً
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عني خيانةً
ولكننى كنتَ امرأً لى جانبُ
ملوكٍ وإخوانٍ إذا ما أتيتهم
كفعلك في قومٍ أراك اصطنعتهم
وإنك شمسٌ والملوك كواكبُ
فلا تتركنى بالوعيد كأننى
ألم تر أن الله أعطاك سورةً
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمه
فإن أك مظلوماً فعبداً ظلمته

وتلك التى أهتمُّ منها وأنصبُ^(١)
هرأساً به يُعَلَى فراشى ويُقَشَّبُ^(٢)
وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ
لبلغك الواشى أغشُ وأكذبُ
من الأرض فيه مُستَرَادٌ ومَذْهَبُ^(٣)
أحكّم في أموالهم وأقربُ
فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ
إلى الناس مطليُّ به القارُ أجربُ^(٤)
ترى كل مَلِكٍ دونها يتذبذبُ^(٥)
على شعثٍ، أى الرجال المهذبُ^(٦)
وإن تك ذا عتْبى فمثلك يُعتبُ^(٧)

وواضح أنه يصور نفسه في أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

- (١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .
(٢) الهراس : شجر كثير الشوك .
العائدات : الزائرات في المرض . فرشنى : بسطن لى . يقشِب : يجدد .
(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام العساسة له في ديارهم .
(٤) القار : القطران ، وكانوا يداونون به الإبل الجربى .
(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .
(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتقضمه .
(٧) عتْبى : رضا . يعتب : يعطى العتبي والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويخلف له بأنه يرىء مما آتهم به الواشى ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ما صبه عليه من غضب بالقار يُصبّ على الأجرى فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هتبّ أن مديحى للغساسنة هفوة واعفُ عنى ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهنو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت على عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعان دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصّب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرملاً لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هدّيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قدّوتهم .

وإذا كنا أعجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعى النعمان وإن كان سرّاً قيساً لما أثنى فيها بحروبه . وهو يعبرٌ بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهشوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها في القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والظن بسابق الود ، فقد ظنوا أنه لن يرثي النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال في فؤاده ، ونحس أنه سَعَرَ قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحمًا عليه :

سَقَى الْغَيْثُ قَبْرًا بَيْنَ بُصْرَى وَجَاسِمٍ بَغِيثٍ مِنَ الرَّسْمِيِّ قَطْرٌ وَوَابِلٌ^(١)
ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعنبرٌ على منتهاه دِيمَةٌ ثم هَاطِلٌ^(٢)
وَيُنْبِتُ حَوْذَانًا وَعَوْفًا مُنُورًا سَائِبَةً مِنْ خَيْرِ مَا قَالَ قَائِلٌ^(٣)

وهو يستمطر على قبره شأبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطرًا بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنبت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرى . وحقًا كان الشعراء حوله ومن قبله يستقون السحاب لقبور من يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بنوقه الحضري وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياح . وهي صورة حضارية تقابل أختها التي مرت في مديحه لأخيه عمرو . وقد قدّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤسباً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً في مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله في فاتحة معلقته التي أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مِيَّةَ بِالْعَلِيَاءِ فَالْسَّنْدِ أَقَوْتُ وَطالَ عَلَيْهَا سالفُ الأَبْدِ^(٤)

وقفتُ فيها أَصِيلانًا أُسائلُها عَيْتُ جَواباً وما بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدِ^(٥)

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلاناً : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

(١) بصري وجاسم : موضعان بالشام . الرسمي : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعرى : نباتان طيبا الرائحة .

إلا الأورى لآياً ما أبينها والنوى كالحوض بالظلومة الجلد^(١)
 ردت عليه أقاصيه وليده ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد^(٢)
 خلّت سبيل أنى كان يحبسه ورفعته إلى السجفين فالنضد^(٣)
 أمست خلاً وأمسى أهلها احتملوا أخنى عليها الذى أخنى على لبد^(٤)

وهو يستهلها ببناء دار مية ولا يسمع رجماً لندائه ولا رداً عليه، فقد خلّت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسألها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النوى . ويطلق في وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرتة جارية في أرض صلبة ، وما زالت ترد أثره على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع في تسمية الأرض التي لم تحفر بالظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذى لا يُحرث ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التي رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرت الأيام عليها أذيال البلى والعفاء ، كما جرت من قبل على لبد نسّر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة ، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حباً ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك في مقدمته لاعتداريته العينية أن يصور عواطفه ووجهه ولكنه لم يكده يقول :

فكفكفت منى عبرةً فرددتها على النحر منها مستهل وداعم^(٥)

رفعته : أعلته . السجفان : مصراعاً السر في الخيمة . النضد : المتاع .
 (٤) أخنى عليها : أصابها بأفات الدهر .
 لبد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويل .
 (٥) كفكف الدمع : مسح . المستهل : السائل . الداعم : الذى يترقق في العين قبل أن يسقط .

(١) الأورى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النوى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر .
 الجلد : الصلبة .
 (٢) لبد : جمعه . الوليدة : الأمة .
 الثأد : الثرى الندى .
 (٣) خلّت : شقت . الآق : السيل .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه في معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ في تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ طَاوَى الْمَصِيرِ كَسَيْفِ الصَّبَقِ الْفَرْدِ (١)
 أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجِوَزَاءِ سَارِيَةٌ تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ (٢)
 فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ طَوَّعُ الشَّوَامِتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدِ (٣)
 فَبِئْسَ عَيْسٍ عَلَيْهِ وَاسْتَمَرَ بِهِ صُمِعَ الْكَعُوبِ بَرِيَّاتٍ مِنَ الْحَرْدِ (٤)
 وَكَانَ ضَمْرَانُ مِنْهُ حَيْثُ يُوزَعُهُ طَعَنَ الْمُعَارِكِ عِنْدَ الْمُحْجَرِ النَّجْدِ (٥)
 شَمَكُ الْفَرِيصَةِ بِالْمِدْرَى فَانْفَذَهَا طَعَنَ الْمُبَيْطِرِ إِذْ يَشْفِي مِنَ الْعَصْدِ (٦)
 كَأَنَّهُ خَارِجًا مِنْ جَنْبِ صَفْحَتِهِ سَفُودٌ شَرِبَ نَسُوهُ عِنْدَ مُفْتَادِ (٧)
 فَظَلَّ يَعْجَبُ أَعْلَى الرَّوْقِ مُنْقَبِضًا فِي حَالِكِ اللَّوْنِ صَدَقٍ غَيْرِ ذِي أَوْدِ (٨)
 لَمَّا رَأَى وَاشْتَقَّ إِقْعَاصَ صَاحِبِهِ وَلَا سَبِيلَ إِلَى عَقْلِ وَلَا قَوْدِ (٩)
 قَالَتْ لَهُ النَّفْسُ إِنِّي لَا أَرَى طَمَعًا وَإِنَّ مَوْلَاكَ لَمْ يَسْلَمْ وَلَمْ يَصِدْ (١٠)

(١) الوجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمها بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلاً . الجوزاء : برج في السماء . سارية : سحابة . تزجي : تدفع . الشمال : ربيع الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد يطوعها لإسراعها به . والصد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصادق . يوزعه : يقره . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) المبيطر : اللحم الكتف . المدري : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العصد : داء يلم بكتفها .

(٧) السفود : الحديدية التي يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتاد : موضع النار الذي يشوى فيه .

(٨) يعجم : يعلك . صدق : صادق في الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصادق . الإقصاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأمر .

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوامه مزينة بما فيها من تقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى في الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماء من بردٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن ذُعر ذعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع في جريه ، ولحمة القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يتغنى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهله يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً مثلاً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثاره أحجم عن لقاء الثور لإبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان ينبغي ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسب السابق ، لما بثَّ النابغة في الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطعمه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عرينه وحماه . ويقتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحذنه نفسه بأنه يطعم في غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به في مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته في التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجييسه أو من حيث التشبيهات وإدخالها في نسيج الأبيات .

وفي ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بني أسد من حلفٍ وبينها وبين بني عامر من حرب ، وهو في هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه في المديح والاعتذار والثناء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يبادى فيه ، وخاصة في الهجاء ، وأقرأ له هذه الأبيات في عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوهُ :

فإن يك عامرٌ قد قال جهلاً فإن مَطِيبَةَ الجهل السُّبابُ

فَكُنْ كَأبيك أو كَأبي بَرًا^(١) توافقك الحكومة والصواب^(١)

ولا تذهب بحلمك طاميات^(٢) من الخيلاء ليس لهنَّ باب^(٣)

وإنك سوف تحلم أو تناهى إذا ما شبت أو شاب الغراب^(٣)

وهي أبيات تخلو من الإقذاع في الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضري إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله في أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثاني في البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتي بها في ثنايا شعره وقصيدته ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما مثلنا من شعره كثير منها ، ومن راعها قوله :

ولست بمستبقي أخاً لا تلمه على شعث ، أي الرجال المهذب

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظره ودقة حسه .

وجوانب كثيرة في شعر النابغة تفصح عن مهارته في صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صورته ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة في دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشي ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت تقاد العصر العباسي يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلم بيتاً^(٤) » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقوى في شعره محتجين على ذلك بيت في قصيدة المتجردة التي وضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروي ، بينما رويها المطرّد مكسور ، ورووا في ذلك قصة ، هي أن النابغة قدم

(٢) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك

مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص

٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب

الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس

لن باب : لا يخرج منهن .

يُثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك في قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه في غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك^(٢) . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحَل على النابغة ، فحري أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بالفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهي عناية أتاحت له كثرة الخواطر في اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك في تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجع إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبغني النعمان إن له فضلا على الناس في الأدنى وفي البعد

وكذلك صنع في اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلاً ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌ دون ذلك شاغلٌ مكان الشَّغاف تبتغيه الأصابع^(٣)
وعيدٌ أبي قابوس في غير كُنْهِهِ أتاني ودوني راكسٌ فالضواجع

وهذه العناية البالغة بالمعاني والألفاظ كان يؤازرها عنده عناية بالصور وما يُطوى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التي تخلب لبَّه ، وخاصة حين يتصل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعظماً مسترحماً . وكان له ذوق جيد في اختيار صورته ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التي نعيمَ بها في الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتي في مديحه وراثته بمعان حضارية غير مألوقة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هي صفحة

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغاني (٢) الشغاف : حجاب القلب .

(طبعة دار الكتب) ١٠/١١ .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ،
وتسربت من ذلك أسراب في جميع موضوعات شعره ، حتى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النايفة أخلاقه الرفيعة التي تتمثل في وقاره
وارتفاعه عن الدنياه ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحيفاظه الشديد على العهد
وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التي احتلها في العصر الجاهلي وأسبابها ،
إذ جعلوه محكماً بين الشعراء في عكاظ كما قدمنا ، وكأنه في رأيهم الشاعر الفذ
الذي لا يُشْتَقُّ غباره والذي لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثمَّ كان حكمه
قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .